

لَمَحَاتُ فِي تَارِيخِ التَّشْيِيعِ

لفضيلة الأستاذ حسن الأمين

وقد ألقى موجزه في المؤتمر الألفي للشيخ الطوسي

لبنان - بيروت

كيف نفهم التشيع ؟

حقيقة الإسلام

لكي نفهم التشيع وعوامل وجوده يجب ان نفهم الاسلام فهما صحيحا ، و نفهم الغاية التي جاء من اجلها الاسلام والهدف الذي رُمى اليه .

فاذا كان الاسلام عبادات محضة، فلاريب انه لم يكن هناك من مبرر لوجود التشيع لأن الناس لم ينقطعوا عن اداء عباداتهم في كل الظروف التي مرّ بها الاسلام .

ولكنّ الاسلام ليس عبادات وحدها، فالى جانب العبادات كانت للاسلام اهداف عالمية وغايات انسانية هي في الواقع جوهره و حقيقته والغاية التي جاء من اجلها . ومهما كان من امر العبادات فانّها لا تتعدى مصلحة الفرد بربه ، ولا مساس لها بصميم حياة الشعوب وسعادتها المعاشية او شقائها الاجتماعي . ولا تأثير لها على رفع الظلم ونشر العدل والمساواة والحرية .

جاء الاسلام فاصبحت الكفاءة الشخصية هي المؤهل للتقدم ، واصبحت العدالة الاجتماعية هي المفروضة ، واصبح الفقر هو المحارب ، لقد انقلبت المقاييس فاصبح «بلال الحبشي» الافريقي الأسود هو المتصدر ، و«سلمان الفارسي» هو القريب ، والعبد السابق «زيد بن حارثة» هو القائد

وانقرض التحكم الفردي والاستبداد الشخصي فلا ظلم للفرد ولا للمجموع ولا طغيان للمتسلطين ولا ادلال بالأنساب ، ولا استسلام للنزوات ولا استرسال في العصبية ولا مصادرة للحريات . والمال مال الامة ينفق في مصالحها ويبدل لراحتها بلا تمييز ولا تعسف ولا افتئات .

استطاع الاسلام ان يوجد في الجزيرة العربية هذا الحكم ، وان يسمو بالبشرية الى درجة من العدل الاجتماعي والحرية الشخصية والمساواة العامة مالم تحلم به في ماضيها ، وكان اقل انحراف عن هذا الخط يستدعي من المخلصين التصدي له ، والوقوف في وجهه ، والثورة عليه .

الرجعية العربية

وكان في يقين النبي ان الرجعية العربية التي حاربت الاسلام حربها الشعواء لم تمت في نفوس اصحابها ، وان الذين فرض عليهم الاسلام انتصاره لا يزالون متحفزين . وكان في علم الله ان العناصر التي تألّبت على ابطال الدعوة وهزيمتها لا تزال تتألب سرّاً و تنظّم ليوم تثبت فيه من جديد .

لذلك نلاحظ ان كلمة عربية كان لها قبل الاسلام مؤدى عاما اصبح لها بعد تركيز الاسلام مؤدى معيناً ، وكثر ترادفها في القرآن وفي الحديث ، واصبحت تشير الى طبقة معينة ممن ابدوا اسلامهم : تلك هي كلمة «المنافقون» ، ثم رأينا ان القرآن الكريم ادخل تطوراً جديداً على مفهوم العقيدة ، فاذا هنالك شيء اسمه الاسلام وشيء اسمه الايمان ، واذن فان لدينا مسلمين لا يمكن ان يقفوا في صف واحد مع المسلمين المؤمنين .

وشاء الله ان يؤكّد في كتابه الكريم هذا المعنى و ان يركّز على الإشارة اليه وينبّه الأذهان الى استيعابه فخاطب نبيّه مشيراً الى المنافقين: « لا تعلمهم نحن نعلمهم » وهذا يدلّنا على تغلغل النفاق و احكام امره بحيث يخفى رجاله وتخفى نواياهم حتى على النّبي (ص) .

تدابير النّبي

امام ذلك كان لا بد للنّبي (ص) من تدبير مضاد يقطع الطريق على الرجعية المتحفزة ، فاخذ يسهّد للرجال الذين حملوا عبء النّضال الأول صابرين على التعذيب والشقاء واخذ يشير لهم ويدلّ عليهم فسمعناه يقول: «عمار جلدة ما بين عيني» ، «ما اقلّت الغبراء ولا اظلّت الخضراء على ذى لهجة اصدق من ابي ذر» ، «سلمان منّا اهل البيت» . الى كثير من امثال هذه الأقوال التي كانت في الحقيقة غرساً لبذرة التشيع الأولى . ثم وأيناه يبلغ بالامر غايته حين وقف في اياه من حجة الوداع في جسوع المسلمين بغدير خم واخذ بيد علي قائلاً بعد تهديد : «من كنت مولاه فعلىّ مولاه» .

رفض الانحراف عن مبادئ الإسلام

من استعراضنا للرجال الذين التفوا حول علي (ع) وكانوا هم من قبل، النّواة الأولى للإسلام في التفافهم حول محمد وعلى في حياة النّبي (ص) ، ثم حول علي وحده بعد وفاة النّبي . من استعراضنا لهؤلاء الرجال نرى أنّهم برزوا من صفوف الشعب المضطهد المظلوم المحروم وتشربوا

الاسلام تشربا كاملاً ادى بهم الى تحصيل اقصى التعذيب معاناة افطع البلاء .
 وحين تمت السيطرة على الخلافة بالأسلوب المعلوم رفض هؤلاء
 اقرار الأمر الواقع وصعدوا اليوم في وجه طلائع الانحراف ، صودهم
 بالأمس في وجه الجاهلية الوثنية ، و اعلنوا مقاومتهم لقريش التي تمهّد
 للانحراف عن جوهر الاسلام بتأمرها على على - اعلنوا مقاومتهم لها بنفس
 النقوة التي قاوموها بها قبل استسلامها للاسلام حين كانت تتأمر على
 محمّد (ص) .

وهكذا فانه يمكننا القول : ان رفض الانحراف عن جوهر الاسلام
 ثم الثورة على دول الظلم والجور هو المعيار الأساسى للتشييع و من هنا
 يرتبط ظهور التشيع بظهور وبدء هذا الانحراف .

كِبَابَةُ تَارِيخِ الْإِسْلَامِ

١- الأسس الصحيحة لكتابة تاريخ الإسلام

الأسس التي ارتكز عليها مؤرخو الاسلام من قبل ومن بعد ليست
 في معظمها هي الأسس الصحيحة التي كان يجب ان ترتكز عليها كتابة
 تاريخ تلك الدعوة العظيمة وتاريخ ابطالها ، فالتذين كتبوا التاريخ كانوا
 مقيدون بقيود حددت مناهجهم و حدّت من انطلاقهم ، فضاء تاريخ
 الحركات الشعبية العديدة التي كانت تعبيراً عن تدمير الشعب و تقمته على
 حكامه ، وجهلنا تفاصيل الانتفاضات الجماهيرية التي قادها المسلمون
 المخلصون . و انّ مؤرخاً «كالطبرى» مثلاً يعتبر مؤرخ الاسلام الأول
 نراه مشدوداً بحبال لا يستطيع معها الانفتاح الكامل على الحقائق الصريحة ،

فهو حين يؤرخ حركة «ابى ذر» مثلاً لا يتورع حين يعدد مآخذ الشعب على حكّامه ، تلك المآخذ التى تبرر ثورته ، لا يتورع حين يصل الى الصميم من ان يقول : (امور كرهت ذكرها) . واذا كان الطبرى كره ذكرها فما ذنب الشعب ليضيع تاريخه وما ذنبنا لنجهل ذلك التاريخ فى حين ان ماكره الطبرى ذكره هو اللب فى عوامل النقمة و هو الجوهر فى اسباب تحركات الشعب المحروم المهضوم .

و«الدكتور هيكل» نشر كتابه «حياة محمد» اول ما نشره فصولاً فى جريدة «السياسة» الأسبوعية و لما وصل الى دعوة النبى لعشيرته الأقربين نشر تفاصيلها كما وردت فى كتب التاريخ فاعترض عليه معترض بان ذلك عين ما تقوله الشيعة، فرد «هيكل» بان هذا ما يقوله التاريخ . ولما نشرت الطبعة الثانية من الكتاب وردت التفاصيل مشوهة و بتر منها ما افسدها . وتساءلنا عن السبب فعلمنا انه عرض على وزارة الأوقاف المصرية شراء الف نسخة من الكتاب فاشتترط هذا التشويه فنزل «هيكل» على شرطها لقاء خمسمائة جنيه مصرى ثمن الألف النسخة، ولم يعد القول مآقاله التاريخ .

٢- التاريخ الشيعى :

و اننا لنقول ان التاريخ الشيعى هو التاريخ الموازى لاحداث تاريخ الاسلام ، ولكن رفضاً لما هو حقيق بالرفض منها، وثورة عليه، ومحاولة لاقامة الاسلام الصحيح .

ان التاريخ الشيعى يرفض ان يكون طريق الوصول الى الخلافة هو

العراك بين قریش و بین فِئَة من الأنصار، عراكٌ يبدأ في سقيفة بنی ساعدة بالملاسنة ثم يتطور الى الشتائم ثم يزيد تطوراً الى الاشتباك بالأيدي فيتغلب من لم يكن زعيمهم مريضاً على الذين كان زعيمهم مريضاً مسجىً فينقرر منذ تلك الساعة المبدأ الخطير : مبدأ أن الخلافة لمن غلب .

ان التاريخ الشيعي يرفض اقرار هذا المبدأ و ان التاريخ الشيعي يرفض احياء الطبقية التي امامتها الاسلام ، و تصنيف الناس و رفع درجاتهم بحسب انتمائهم الى قبائل معينة او عناصر معينة او شعوب معينة . ويرفض ان يجري تقسيم القبيء والصدقات على هذا الاساس ، فيفضل المهاجرون من قریش على غيرهم من المهاجرين ، ويفضل المهاجرون كافة على الأنصار كافة ، و يفضل المسلمون من العرب على المسلمين من غير العرب ، ويفضل الصريح على المولى .

ان التاريخ الشيعي يرفض هذا الاجراء و يتمسك بسنن القواعد الاسلامية التي نصّت على انه : «انما الصدقات للفقراء والمساكين» ، و هي قاعدة مطلقة لا تميّز ولا تفضل ولا تفرّق . والتاريخ الشيعي يرفض التضيق على حرية الرأي و يأبى خنق هذه الحرية واضطهاد رجالها و يرفض ان يعامل الناس مثل ما عومل به مثلاً صحابي مثل صبيغ بن عسل حين غم عليه فهم بعض الآيات المتشابهة فراح يسأل عن ذلك فاستدعاه الخليفة وراح يضرب رأسه بعراجين النخل حتى دمی رأسه ثم نفاء . و ان التاريخ كذلك ان يتخذ قائد المسلمين من مهنته الشيعي يرفض فرصة الهجوم على من لم يرتدوا ليقتل عميدهم

كما يرفض التاريخ الشيعي ان يصفح عن ذلك القائد نفسه حين حلف في احدى معاركه في العراق : لئن اظفره الله على عدوه ليجدن في قتلهم حتى يجرى نهرهم بدمائهم الخ

ان التاريخ الشيعي يرفض ان يصفح عن هذا القائد و اشباهه لأن فيما ارتكبه انحرافا بالاسلام وتضييعاً له ، ولا تشفع له عندهم انهم انتصروا وفتحوا لأن غاية الاسلام ليست الفتح لمجرد الفتح ، والفتح الذي ترافقه هذه الاهوال ، فتح يأباه الاسلام الصحيح .

ان حقيقة تاريخ الاسلام كرسالة انسانية هو هذا الصراع بين الخطين خطأ الانحراف و دولة الجور والظلم ، وخط المبادئ الإسلامية الصحيحة .

٣- مراحل تاريخ التشيع :

اعتبرت الرجعية ما اعلنه النبي (ص) يوم غدير خم شيئاً خطيراً ، فلم يكن من السهل عليها وصول على (ع) الى الحكم بعصبة المتماسكة ورجاله المتشبعين بمبادئ الحرية والعدالة والمساواة ، والعازمين على عدم التفريط بذرة مما قرره الاسلام للشعوب من حق الحياة الكريمة والمتصلبين في دفع الانتهازين والاستغلاليين والمنحرفين عن التغلغل الى أزمة القيادات الاسلامية .

لقد صبرت الرجعية وقرت في عهد النبي (ص) ولم يبق لناهجها مكان في السيرة الاسلامية المتوثبة ، هذه الرجعية التي رأت آخر آمالها ينهار يوم فتح مكة حين ابصرت انّ الرجل الاسود «باللاء» الحبشي هو الذي عهد اليه النبي (ص) بان يصعد على ظهر الكعبة معلناً كلمة الاسلام صارخاً

بِالشَّهَادَتَيْنِ .

لقد كان ممكناً ان يصعد أىَّ رجلٍ غير «بلال» فيقف هذا السوقف ولكن النبي (ص) اختار «بلالاً» بالذات ليرى قريشا الحَدَّ الفاصل بين الماضى والحاضر : العبيد السود حين يخلصون لدعوة الهدى هو اليوم السادة والقرشيون الذين قاتلوا الدعوة هم الذين ينفذون اوامر السادة الجدد فى وجوب تلبية نداء الحق . ولم تكتفِ الرجعية حنقها حتى و هى فى هزيمتها الفاصلة فقال قائلها : «الم يجد محمد غير هذا الغراب الأسود ينعب بهذا النداء فى آفاقنا؟» .

لقد صبرت الرجعية متسائلةً بينها و بين نفسها اتسح الفرصة من جديد ؟ وكان عليها ان تفكر طويلاً و ان تخطط للبعيد و لما رأت النبي (ص) يعلن ما اعلنه يوم الغدير عزمت على ان تدعّم ايّة جماعة تتصدى لابطال هذا الاعلان . ولما مرض النبي وازداد مرضه حاول ان يؤكّد مابداً اعلانه يوم الغدير و ان يسجّل هذا الاعلان بوثيقة خطية قائلاً انه سيكتب لهم ما لن يضلوا بعده ابداً لكنه لم تساعده الظروف . فكان كل ما استطاع النبي (ص) ان يفعله فى تلك الساعة هو ان يطردهم من مجلسه على ما يؤكّد البخارى فى صحيحه .

على ان هذه الرجعية رأت أن تحتاط لنفسها فبمجرد موت النبي (ص) فصدزعيم من ابرز زعمائها بل ربما كان ابرز زعمائها «ابوسفیان» قصد الى «على» عارضاً عليه خدماته . وهنا يتجلى السعي الاساسى للتشييع الذى هو رفض الانحراف مهما كان فى هذا الرفض . فاعرض على عن

الرجل رافضاً استغلال ما عرضه عليه من جهود و قوى .

وهدف الرجعية من هذا العرض كان هدفاً مزدوجاً : فعلى احتمال قبول «علّى» بما عرضته عليه فان ذلك سيكون تزكية لها ثم سيكون من وراء ذلك القاح الفتنة بين المسلمين . وعلى احتمال رفض «علّى» لعرضها فان مجرد اتصالها بعلّى سيحرّك الحكم الجديد لاسترضائها وقد تحقق ذلك فعين ابن «ابى سفيان» والياً على مكة ثم عين قائداً فواليا على دمشق

٤- الطريق الوعر الشاق :

تعطيل ماأراده النبى فى ايامه الأخيرة من كتابة الوثيقة حدّد للتشيع أسلوبه فى الحياة ودلّه على ان الطريق امامه ليست مفروشة بالورود بل هى طريق طويلة شاقة مفروشة لبالشوك وحده بل بظبى السيوف و اسنة الحراب و اطراف الرماح ، وان ليس له الا الحرمان والاقصاء و ان عليه ان يصبر ويصابر .

فبعد النجاح فى اقصاء علّى نفسه اصبحت المخططات تستهدف اقصاء المتألمين معه الآخذين برأيه ، فمارست الرجعية كل امكاناتها فى اقصاء الشيعة عن كل مظهر من مظاهر الحكم وقد استطاعت ذلك مستغلة حاجة الحكم الجديد لها واستنصاره بها كقوة تستطيع ان تناهض المعارضة التحريرية المتشكلة بالشيعة الأوائل ، بل ان الحكم الجديد لم يتوان عن التحالف معها ففى الحين الذى اقصى فيه عن القيادات الجديدة حتى «اسامة بن زيد» الذى عينه النبى (ص) نفسه ، رأينا فى رأس تلك القيادات امثال «يزيد بن ابى سفيان» و «عكرمة بن ابى جهل» . بل حتى من الأمويين

انفسهم رأينا ان الذين اسلموا مخلصين فى مطلع الدعوة مثل «ابان بن سعيد بن العاص» و«عمرو بن سعيد بن العاص بن امية ابن عبد شمس» قد أقصوا عن اية قيادة .

وحين نستعرض اسماء الذين احتضنوا النبى (ص) واحتضنهم النبى فى مطلع الدعوة ثم كانوا سيوفها القواطع فى كل ميدان ، حين نفتش عن تلك الاسماء فى القيادات والولايات لانرى اى واحد منها فيماعد «سلمان الفارسى» الذى كان لابد من استعماله لان اى انسان لايسد الفراغ الذى كان يمكن ان يسده «سلمان» فالحاجة هى التى دعت الى اشراكه . ومع ذلك فانه وضع بعيدا عن الاضواء بعيدا عن القيادة الفعلية . وفيماعد «عمار بن ياسر» كذلك فيبدو ان رغبة شعبية ملحة ادّت الى تعيينه واليا على الكوفة ، ولكن هذه الولاية لم تطل اكثر من سنة عزل بعدها امام الضغط الرجعى الذى لم يطق وجود رجل شعبى مناضل مثل «عمار» بين رجال الحكم .

ولايفوتنا ان نشير الى ان التاريخ الشيعى لم يناقض نفسه فهو يرفض الانحراف والمنحرفين الى اية فئة اتسموا و يتبنى الذين استقاموا على الطريقة ايتا كان عنصرهم ، فهو - على العكس مما يتهم به - لايقاوم اهل بيت لمجرد انتسائهم الى هذا البيت ، ولايوالى اهل بيت آخرين لمجرد انهم اهل هذا البيت «فعمر بن سعد بن العاص بن امية بن عبد شمس» ، الاموى العريق سليل الأمويين لم تمنع امويته التشيع من ان يحترمه ويشيد به ، لان التشيع يعلم انه اسلم فى مفتتح الدعوة و اخلص لها صادقا فى اخلاصه

وكذلك القول في «عربن عبدالعزيز بن مروان» . ان التشيع لم يذكر له انه حفيد مروان ، بل ذكر له انه كان عبدا صالحا و حاكما عادلا ، فالتشيع يطعن بالجد في نفس الوقت الذي يكرم فيه الحفيد . والتشيع نفسه لم يغفر لابن امام و اخي امام و حفيد ائمة انه لم يكن مستقيما فسمى ابن الامام «على الهادي» اخا «الحسن العسكري» ، سماه «جعفر الكتّاب» . و تمّ الأقصاء فكان اول اجراء اتّخذته الحكم الجديد هو مصادرة اموال فاطمة بنت محمد (ص) مصادرة جريئة وغنيمة فسجلت بذلك صفحة جديدة في تاريخ التشيع . وبطلة هذه الصفحة هي السيّدة الزهراء (ع) حيث شاركت بنفسها في قيادة التشيع بعد ابيها .

والذين لا يتعمقون في الامور ويأخذون بالسطحيات يتساءلون ان لم يكن علنا فيبينهم وبين انفسهم ، اتستحق فدك وغير فدك ان تخرج فاطمة بنت محمد (ص) من اجلها الى المجالس العامة مطالبة ملحة بالطلب و ان تخطب وتستشير ، وتتكلم بالقول الكثير ؟

ولكن هؤلاء ينسون او يجهلون ماذا قالت فاطمة في تلك الخطب ، ولا يذكرون اولا يعلمون الا انها خرجت وخطبت في موضوع فدك خاصة وارثها من ابيها عامّة .

٥- صفحة الكفاح

ولكننا نقول : كما كان صوت محمد هو الصوت الذي سجل الصفحة الأولى لا في تاريخ الكفاح الشيعي فحسب بل في كفاح جميع المستضعفين المضطهدين التائقين الى الحرية والحق . كفاح جميع ضحايا الاستبداد

وَالظُّلْمَ وَالْحُكْمَ الْغَاشِمَ .

كَانَتْ فَدَكُ أَهْوَنَ عَلَى فَاطِمَةَ مِنْ كُلِّ هَيْنٍ، لَوْ أَنَّ فَدَكَ هِيَ الْمَقْصُودَةُ بِالذَّاتِ، وَلَكِنْ فَدَكَ كَانَتْ رَمْزًا لِلْأَمَةِ كُلِّهَا. وَكَانَتْ فَاطِمَةُ أَجَلَ مِنْ أَنْ تَرْفَعَ صَوْتًا مُطَالِبَةً بِالْمَادَةِ، لَوْ كَانَتْ تَطْلُبُ حَقًّا هَذِهِ الْمَادَةِ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ تَنْذِرُ الْأُمَّةَ الْغَافِيَةَ وَتُنَبِّهُ إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ الْمُظْلَمِ الَّذِي سَيَصِيرُ إِلَيْهِ الْإِسْلَامُ .

وَكَانَتْ هُنَا بِذِكْرِ مُقَطَّعٍ وَاحِدٍ مِنْ خُطْبَةِ فَاطِمَةَ، قَالَتْ فَاطِمَةُ :
« اظْمَنُّوا لِلْفِتْنَةِ جَاشًا وَابْشُرُوا بِسَيْفِ صَارِمٍ وَسُطُورَةِ مُعْتَدٍ غَاشِمٍ وَهَرَجٍ دَائِمٍ شَامِلٍ وَاسْتِبْدَادٍ مِنَ الظَّالِمِينَ يَدْعُ فَيَأْكُمُ زَهِيدًا وَجَمْعَكُمْ حَصِيدًا ،
فِي أَحْصَارَةٍ عَلَيْكُمْ » .

كَانَتْ فَاطِمَةُ تَسْتَشْفِ الْغَيْبَ وَتَرَى بِفُطْنَتِهَا مَا سَيَصِيرُ إِلَيْهِ حَالُ الْأُمَّةِ، فَمَادَامُ الْحُكْمُ الْجَدِيدُ يَفْتَتِحُ أَمْرَهُ بِاضْطِهَادِهَا هِيَ نَفْسُهَا وَهِيَ بِنْتُ مُحَمَّدٍ فَالَى أَيْنَ سَيَصِيرُ أَمْرُ النَّاسِ فِيمَا سَيَأْتِي مِنَ الْأَيَّامِ .

٦- وَقَعَ مَا حَذَرَتْ مِنْهُ فَاطِمَةُ

وَمِنَ الْعَجِيبِ أَنَّ الَّذِي حَذَرَتْ مِنْهُ فَاطِمَةُ وَقَعَ كُلُّهُ، وَأَنَّ مَا نَبَّهَتْ إِلَيْهِ قَدْ رَأَاهُ النَّاسُ بَعْدَهَا جَلِيًّا وَاضِحًا وَ أَنَّ الضَّحَايَا الْأُولَى لِلظُّلْمِ الْمَتَمَادِي كَانُوا الَّذِينَ سَمِعُوا كَلَامَ فَاطِمَةَ أَنْفُسَهُمْ ، أَوْ أَبْنَاءَ مَنْ مَاتُوا مِنْهُمْ .
فَالْمَدِينَةُ مَدِينَةُ الرَّسُولِ نَفْسُهَا الَّذِي تَعَالَى فِيهَا صَوْتُ فَاطِمَةَ مُنْذَرًا مُحْذَرًا قَدْ شَهِدَتْ مِنْ «السَّيْفِ الصَّارِمِ وَسُطُورَةِ الْمُعْتَدِي الْغَاشِمِ وَمِنْ الْهَرَجِ الشَّامِلِ الدَّائِمِ وَاسْتِبْدَادِ الظَّالِمِينَ مَاتَرَكَ فَيُنْهَى زَهِيدًا وَجَمْعُهَا حَصِيدًا» عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِ فَاطِمَةَ .

فقد اباحها يزيد بن معاوية لجنوده فى وقعة الحرة ثلاثة ايام واجبر قائدة سكانها على ان ييايعوه على انهم عبيدارقاء ليزيد .

ومن قبل ذلك اصيب عبدالرحمان بن ابى بكر بسطوة المعتدين الغاشمين واستبداد الظالمين فأهين وروع فمات قهراً وكمداء، كما اصيب اخوه محمد بن ابى بكر فقتل اشنع قتلة وقتل عبدالرحمان بن خالد بن الوليد بالسهم واصيب عبدالله بن عمر فاذل واهين وبايع نفس بيعة اهل المدينة . واصيبت اسماء بنت ابى بكر بالذل واصيب سبط ابى بكر ابنها عبدالله بن اخت عائشة فذبح وصلب وامه تسمع وترى . وبعد ذلك اصيب محمد بن سعد بن وقاص فشتته الحجاج وضربه ثم قتله واصيب المطرف بن المغيرة بن شعبة كذلك بيد الحجاج . والأولى ان نقول : ان الأمة كلها قد اصيبت .

٧- شعارات التشيع

لقد سجلت الزهراء صفحة بدء الكفاح فى تاريخ التشيع فحددت مناهجه ورفعت شعاراته واوضحت طريقه .

اما هذه الشعارات فهى كما رأينا صريحة واضحة فى خطبتها: توقع سيف الظالمين الصارم وسطوة المعتدى الغاشم، ثم سلب الشعب اقواته لينعم بها الظالمون وتركه للفقر والذل .

واما المنهج والطريق فهو بطبيعة الحال رفض ذلك والتصدى له . فهل وفى التشيع لهذه المبادئ التى اعلنتها الزهراء ؟ ...

ان مبدءاً يعلنه محمداً (ص) وتفصل اصوله فاطمة ويتزعمه على ، ان مبدءاً هؤلاء الثلاثة اركاناً ودعائهم ، سيجد حتماً المتألمين معه المتمسكين به،

المستعدين للتضحية حفاظا عليه وصونا له ، وهذا ما كان .
وانطلق الحكم الجديد ومضى في طريقه بعد وفاة الزهراء في هذه
الفترة كان شعار التشيع وكان منهجه الكلمة التي اطلقها على والتي كان
مؤداها : ساصبر مادام الحيف ينالني شخصيا دون ان ينال العتب المبادئ
العامة للإسلام، وقد كان كل منتم للتشيع يردد مارددده على ، فاذا كانوا
هم المقصودين بالذات، فهم لم ينشدوا في يوم من الأيام مغنما ولا اتخذوا
الاسلام سلما ، بل هم الذين تحملوا التعذيب فمات آباؤهم بسياط قريش
احتفاظا بالاسلام ، فهم سيصبرون مادام الاسلام سليما .
وبالفعل فقد ظلت الخطوط الكبرى في الاسلام صحيحة والتطبيق
العملي له قائما واكتفت المعارضة بتسجيل المخالفات ورفضت الاعتراف
بها، ولكنها لم ترفيها ما يوجب تحركا او يستدعى نهوضا ، وظلت على
موقفها تراقب وتشير .

ويتلخص تاريخ التشيع في هذه الفترة بما يلي :

- ١- رقابة عامة على شؤون الحكم فاذا استدعى الأمر مشاركة في
انكفاح فالتشيع ينكر نفسه ويتقدم طلائع المكافحين كما حدث حين خلت
المدينة من القوى لسير المقاتلين الى ما دعى بحروب الردة وشاع ان
الاعراب يتجمعون لمهاجمة المدينة فنهض على ونهض التشيع وراءه ومضى
للدفاع عن المدينة بكل قواه ، و قد حرص على ان يحدد الموقف
تحييداً واضحاً فكان يعلن وهو يسير قائلاً : خرجت اميراً لنفسى .
- ٢- قيادة الفكر الاسلامي وغرس البذور الاولى للمعارف الاسلامية ،

فقد اقام على في المسجد النبوي وفي بيته المدرسة الاولى في الاسلام وتصدى لنشر العلم ملقيا على الناس ما نستطيع ان نسيه بصطلحنه الراهن محاضرات عامة في كل ما يؤول الى الثقافة الاسلامية من شؤون فازدحم عليه طالبوا المعرفة من كل مكان فكان لذلك اثره الفعال في تذكير اسس المدرسة الاسلامية وتكاملها على يدي على ثم تقدمها بعد ذلك في كل ميدان ، ومن اشهر خرجي تلك المدرسة عبدالله بن العباس وهكذا فالتدين اعدهم على هم الذين قادوا الحركة العلمية فكانوا بناة الحضارة الاسلامية واساتذة بناتها .

٣- تقديم كل ما يريده الحكم من مشورات وآراء وفتاوى في شتى الشؤون السياسية والادارية والعسكرية والقضائية . وقد كان لكل ذلك اثره الفعال في سير الحكم وتقدمه . فهو الذي اشار مثلاً بجعل هجرة النبي (ص) مبدءاً للتاريخ الاسلامي، وهو الذي اشار بعدم ذهاب الخليفة على رأس الجيوش . وهو الذي منع من الخطأ في تطبيق الحدود الى غير ذلك من شتى التوجيهات التي كانت تلاقي ترحيباً و تنفيذاً لأنها كانت عين الصواب والتي ادت الى ان يقول الخليفة الثاني : لا كنت لمعضلة ليس لها ابو الحسن، لولا على لهلك عمر . الى غير ذلك من الأقوال التي تتسم بسمه الانصاف والتقدير .

٨- قيام دول الجور والظلم

ولمّا تم اطباق الرجعية على الحكم و سيطرتها عليه في عهد الخليفة الثالث تحركت الجماهير الشعبية التي وجدت نفسها الآن قد جردت من

كل حقوقها واصبحت مستغلا لزعماء قريش والبيت الأموي ، ولكي تفهم حقيقة القوى التي كانت وراء ايصال الخليفة الثالث الى الحكم يكفي ان نشير الى الحوار الذي جرى بين ممثلي الشعب ومثلي قريش والرجعية العربية حين انتهى الأمر الى رأى عبدالرحمن بن عوف .

وذلك ان الناس احتشدوا ينظرون مايجرى: فقال المقداد بن الاسود: ان بايعتم عليا سمعنا واطعنا وان بايعتم عثمان سمعنا وعصينا. فقام عبدالله بن ابي ربيعة المخزومي القرشي (و هو من قريش) وقال للمقداد متى كان مثلك يجترئ على الدخول في امر قريش ؟ وقال عبدالله بن ابي سرح (وهو من قريش) ايها الملاء ان اردتم ان لا تختلف قريش فبايعوا عثمان . فقال عمار بن ياسر : ان اردتم ان لا يختلف الناس فبايعوا عليا . ولكن عبدالرحمن بن عوف القرشي بايع عثمان ، ولما احتج عمار قال له هشام بن الوليد بن المغيرة : ما انت وما رأت قريش لنفسها ؟

وهكذا فان قريش التي حاربت محمدا حتى اضطرها الى الاستسلام هي التي عملت على ايصال عثمان الى الخلافة . ويكفي ان يكون الناطق باسمها رجل مثل عبدالله بن ابي سرح الذي اهدر النبي دمه حين فتح مكة . ثم ان الحوار صريح في ان الأمر بنظر قريش هو امر امارة قرشيّة بحتة لا امر خلافة اسلامية . فقد كان القرشيون صريحين في محاورتهم لانباء الشعب حين قالوا : ما انت وما رأت قريش لنفسها ، ومتى كان مثلك يجترئ على الدخول في امر قريش ؟ .

وبلغ الانحراف اقصى مداه واستغلت الاسلام اسرة واحدة كانت اول

من حاربه وآخر من استسلم له واضطهد المسلمون الأولون وضربوا وثقوا
وتكدست الثروات في ايد محدودة وساد الفقر وطغى الظلم وتحرك الشعب
في كل مكان . وكان من الطبيعي ان يكون التشيع طليعة المتحركين، ولكنه
تحرك ضمن مخطط منطقي مدروس يتجنب العنف وسفك الدم واقبلت
وفود الشعب من كل بلد محددة مطالبها التي كان جوهرها عزل ولاية
الجور واعادة العدل الى نصابه وحماية حقوق الشعب. وكلنا نعرف التفاصيل
والنتائج . اما التشيع فقد وقف ينصح ويفاوض ويتوسط، محاولا تجنب
الفتنة ودفع الاذى ، ولو اصغى الحاكمون لنصائحه وطبقوا ما اشار به
لما وقع التذي وقع .

٩- الشعب يعرف طريقه

يتجاهل الذين يكتبون التاريخ الظاهرة الشعبية الكبرى التي
برزت اثر مقتل الخليفة الثالث :

لقد كانت في المدينة وفود تمثل جميع البلاد الاسلامية ما عدا
الشام ، وكانت هذه الوفود وفود شعبية تحمل آلام الجماهير الكادحة
وآمالها . فالمسلمون على اختلاف اقطارهم ومستوياتهم كانوا ممثلين
في تلك الوفود . اللهم الا الطبقة المستغلة التي عاشت على امتصاص دماء
الشعب .

وحين خلى الشعب وشأنه، وحين كان للشعب ان يختار، عرف الشعب
طريقه واقبل بوفوده المتجمعة وجماهيره المحتشدة يبايع على بن ابي
طالب . وهي بيعة لم يعرف العالم الاسلامي في تاريخه شبيها لها تشيلا

لارادة الشعب وانطلاقا من حسه واندفاعا من مشيئته .

ولكن هل بايع الشعب عليا خليفة كغيره من الخلفاء ليقاس عهده بعهود غيره ؟ لقد كان الشعب في ثورة على الحكم الجائروفي توق الى الوصول لحقوقه المستباحة ، واذا كان العصب المركزي لهذا الحكم قد تقطع ، فان عصبه الأقوى والأشد لايزال سليما .

فالشعب الذي بدأ حركته بيضاء ناصعة ثم اضطروه لصبغها بالدم كان يدرك ان الحركة لم تحقق اهدافها وان الركن الركين للحكم الفاسد لايزال شامخا في الشام ، وهكذا كان على الشعب ان يتابع حرب التحرر وان يواصل كفاحه لاعادة الحكم شعبيا عادلا. ولكن الشعب الذي بدأ حركته اول ما بدأها بما نسميه في اصطلاحات الحديث بالمظاهرات السلمية ولم يكن في تفكيره ان يستشق السلاح للدفاع عن حقه ، ان هذا الشعب وجد نفسه وقد تحولت مظاهراته فجأة الى ثورة مسلحة لم يكن قد اعد لها عدتها . فكان عليه ان يفعل اول مايفعل في هذه الحال ان يختار زعيما للثورة التحررية فاختار عليا .

وهكذا فالتنا نستطيع القول بان عليا انما اختير زعيما شعبيا يقود الشعب المظلوم المحروم في طريق الحق والحرية. ومن هذه الزاوية وحدها يجب ان ينظر الى مايسمى بخلافة علي . وليس من شرط الثورات التحررية ان تنجح دائما ، فعند ما تكون الثورة قد قدمت زعماءها الكبار واحدا بعد واحد صرعى في ميدان النضال ثم عندما يغتال زعيمها الأكبر و هو لا يزال في عنفوان كفاحه يكون من الطبيعي ان تتضعض الثورة بعده .

١٠ - التشيع يتحرك

وحين بلغ الطغيان ذروته وبدا ان جميع الأهداف الذي اراد الاسلام تحقيقها للشعوب لا تقاها من الجهل والفقر والظلم قد انهارت ، و حين اعلن معاوية بن ابي سفيان علنا فور تسلطه على الحكم في الكوفة انه لم يقاتل في سبيل الاسلام واصوله وانما قاتل ليتأمر . وحين استرسل هذا الحكم في تحويل الاسلام الى مجرد سيطرة لها كل مساوئ السيطرات التي هدمها الاسلام ، وحين بدا ان جوهر الاسلام سيضيع الى الأبد .

في هذا الحين برز التشيع الى الميدان مزودا بكل ما يقتضيه الموقف من شجاعة واقدام و بذل ، برز التشيع بشخص حجرين عدى الكندي وصحبه مفجرا السكون الرهيب المهيمن على النفوس القلقة الواجبة .

وكان حجر يعلم المصير المنتظر ، ولكنه كان يعلم ايضا ان معنى الاستسلام هو القضاء التام على مستقبل الروح الاسلامية فتقدم الصفوف ليكون هو الضحية التي تنبه ضمير الأمة وتوقظه وتحرك فيه حس التمرد على الطغيان والجور والنفاق وكان له ما اراد .

١١ - الحسين في الميدان

ولما تعاظمت المحنة واشتد الخطر بعد ذلك بتولى يزيد بن معاوية الحكم وبدا ان الردة ستكون كاملة كان لا بد من ضحية تتناسب مع هول الموقف ، فبرز التشيع من جديد ليحمل العبء ويمسك الزمام ، برز بشخص الحسين بن علي معلنا ان الردة لن تمر الاعلى جثته وجثا سرته واصدقائه .

وحاولت الردة ان تمر على تلك الجثث ، ولكنها لم تدر ان تلك

الجثث قد استحالَت سدا منيعا يحول بين المرتدين وبين التقدم خطوة واحدة .

الى هنا يكون التشييع قد ادى قسطه الأوفى من الدم ، ويكون قد استطاع تنبيه المسلمين الى ما يراد بهم ، ويكون قد بقى عليه ان يقوم بدور جديد فى تركيز الاسلام وتوجيه المسلمين ولم يكن ذلك ممكنا الا عن طريق العلم والفكر وكان التشييع فى ذلك ناجحا الى ابعد حدود النجاح كما سنرى .

١٢- اسم الشيعة

ان النقطة التى انطلق منها التشييع كانت يوم غدیر خم . ولكن كيف تبلور التشييع واتخذ سمتة الخاصة ، واصبح ذا ديولوجية واضحة المعالم مبينة الاسم .

فى رأى ان ذلك بدأ فى اليوم الذى اعلن فيه الخوارج انفصالهم عن خط السير العلوى وزادوا على ذلك فرموا عليا بالكفر .

وقد كان ذلك فى وقت بدا فيه ان معاوية بن ابي سفيان قد كسب الجولة وان المعركة العسكرية المقبلة معه غير مضمونة النتائج . فظهرت حقائق الناس ، وتبين العقائديون المؤمنون من الانتهازيين الوصوليين . فاخذوا يخبرون يتسللون من الكوفة الى معاوية ، او يظهرون التخاذل ويمهّدون للانضمام الى القضية التى بدا لهم انها هى الرابعة .

واصبح من كانوا يقاتلون مع على ثلاثة صنف : صنف سخيّف تتملكه الشبهات و تتلاعب به التخيلات فتشل له الحق باطلا والباطل حقاً،

فيتشبت بالباطل وهو يحسب انه الحق فيتعصب لباطله المشبه له تعصباً اعمى .

وصنف لا ينشد الا المصلحة الشخصية والنفعة الذاتية لايهمه حق ولا باطل ، فلمّا لاح له فقدان النفع الفردى مع على تخلى عن صفه الذى كان فيه ومضى يفتش عما يجز عليه النفع وما يضمن له الكسب ، وكان ذلك انما ينشد فى الصنف الآخر .

وصنف ثالث وهو الأكثر الغالب كان نير الفكرة مشرق الذهن ، فلم يخف على الحق ومواقفه . وكان الى جانب ذلك عقائد يا مؤمنا يناضل عن رأى معين وفكرة محددة لا يتنازل عنهما مهما عظمت التضحيات واغرت المغريات .

فلما رأى هذا الصنف غباء الصنف الأول ونفاق الصنف الثانى اعلن صرخته المدوية هاتفا بين يدي على : نحن شيعتك وانصارك . فى تلك الساعة برزت الى الوجود قوة ثورية منظمة لها هدفها الاصلاحى الواضح ، ويكفى فى تعريف هذا الهدف ان تعلن انها شيعة على .

وفى رأى ان اسم الشيعة مضافا الى على انما استعمل اول ما استعمل فى ذلك الدور وتبين اتباعه كتكتل مستقل واضح ، انما كان يومذاك ، ثم مضت الايام والاسم يزداد رسوخا ، والتكتل يزداد مضيا . فلم يمت معاوية حتى كانت كلمة (الشيعة) وحدها دون اضافة هى العلم الذى يطلق على ذلك التكتل .

١٢- في العهد الأموي

كان عبء التشيع في العهد الأموي الأول عبئاً ثقيلاً يقضى مواجهة طغاة امثال زياد والحجاج وتحمل القتل والتشريد والتجويع فصمد الشيعة صموداً لا بطل وقار عوا الظلم وحركوا الهمم وايقظوا العزائم .

وبعد مقتل الحسين آلت زعامة التشيع الى ولده زين العابدين على بن الحسين فنهج منهجاً هو الغاية في الحكمة وبعد النظر .

فقد كان استشهاد الحسين هو النور الذي انبلج في آفاق النفس الاسلامية فلم يعد مستطاعاً للامويين تحويل الاسلام عن مجراه الصحيح تحويلاً كاملاً بعد ان انكشف الامويون لعامة المسلمين انكشافاً تاماً وغدت النفوس تغلى نقمة عليهم . ولم يعد الموقف الكفاحي يقتضى صداماً دمويّاً اذ كل صدام يهون بعد صدام الحسين ، بل اصبح الامر امر تنظيم دقيق في التوجيه والتنبيه وهذا ما تولاه زين العابدين على بن الحسين .

لقد استأنف زين العابدين انشاء مدرسة جده على بن ابي طالب . فانقذت هذه المدرسة الفكر الاسلامي من الاندثار ، ومهدت لظهور المدارس بعدها واعدت الاساتذة لتلك المدارس ولولا مدرسة زين العابدين و ما اوجدته من تيار علمي دفاق ومجرى فكري خلاق لكان الحكم الاسلامي والفتح الاسلامي مجرد تسلط على الشعوب وتحكم بالناس ، اذ ليس مظهر حضارة الاسلام الفتح الطاغى الغشوم ، وبناء هذه الحضارة ليسوا اولئك المتحكمين بالشعوب المتعسفين بالامم . ان مظهر حضارة الاسلام هو الفكر والقلم والكتاب وهذا ما ركزته مدرسة زين

العابدين .

وهكذا نستطيع القول ان تاريخ التشيع فى هذه الفترة هو تاريخ الاعداد العلمى المنظم والتحضير الفكرى السليم .
وتلا محمد الباقر زين العابدين فكانت مدرسته امتداداً لمدرسة ابيه وقد عملت المدرستان فى ظل حكم اربابى مخيف يحصى عليهما الانقاس ويضيق عليهما كل تضيق ، ولكنهما استطاعتا النفاذ بحكمة و تدبير .

١٤- عصر الصادق

التضييق الذى عانتته كل من مدرسة زين العابدين و مدرسة محمد الباقر ، والسور المحكم من الرقابة العاتية الذى كان يحول بينهما و بين التدفق الى ابعد الآماد . هذا التضييق الذى مارسته الدولة الاموية بكل اجهزتها لتحول دون انتشار العلم . هذا التضييق العنيف بدأت قبضته الحديديتان تتراخيان قليلا بحكم المصير الرهيب الذى اخذ ينتظر الامويين فالحكم الذى قام على سفك الدم واضطهاد الامة و اذلال الشعوب ، والذى كان شعاره ما اعلنه معاوية فى تعليماته لعميليه بسر بن ارطان وسفيان الغامري حين قال للاول : « اطرء الناس واخف كل من مررت به و انهاب اموال كل من اصبته له مالا » .

وحين قال للثانى : « اقتل كل من ليس هو على مثل رأيك واخرب ما مررت به من القرى » .

هذا الحكم كان لابد له من ان يستقطب النعمة العارمة فتزهه من اسسه ، وكان لابد للامة معه من ان تستجيب لاول داع للشورة عليه، حتى

ولو كان هذا الداعى من صنف (ابى مسلم والسفاح والنصور) . وهكذا بدأت الطغمة المتسلطة تنزل منذ عصر هشام بن عبد الملك الذى واجه تضحية شيعية اخرى بذلت فى ميدان البطولات ما كان مترتبا من مثلها ان تبذل . تلك هى تضحية زيد بن على حفيد الحسين و تليذه الروحى .

وكعادتهم كان الامويون غير كرام فى انتصاراتهم فبدلا من ان يواروا الشهيد ويحترموا الموت عمدوا الى نبش قبور زيد و صلب جثته وتركوها مصلوبة اربع سنين ، وبعد السنين الاربع احرقوها و ذروا رمادها متجاهلين ايسر المبادئ الانسانية فضلا عن القواعد الاسلامية .

ولم يكونوا يدرون انهم وهم ينشون قبر زيد ، انما كانوا يحفرون قبورهم بايديهم و يذكرون الناس بالم ينسوه من وحشيتهم فى معاملة المغلوبين ، لاسيما اذا كان هؤلاء المغلوبون ابطالا و احفاد النبى . ومشت الدولة الى الانهيار ، ثم انهارت وقام مقامها دولة جديدة كان عليها ان تلتقط انفاسها قبل ان تسير فى الطريق الذى سارت فيه الدولة القديمة .

بين بدء انهيار الدولة القديمة و انشغالها بنفسها ، وبدء قيام الدولة الجديدة و انشغالها بتركيز اقدامها ، نشأ امام فريد شاء الله ان يكون تجديد الاسلام على يديه ، و ان يشق ظلمات الجهل بعقريّة نادرة فيفتح الابصار على شىء جديد لاعهد للناس به من قبل .

الحرية النسبية التى اتيحت لجعفر الصادق بسبب ضعف الدولتين فى عصره جعلته ينطلق فى ميدان رحيب جعل منه قائدا للثقافة الاسلامية .

ولعل من خير ما قيل في وصف هذه الفترة و اثر الصادق فيها ما قاله المؤرخ الهندي امير على : « . . . ولا مشاحة في ان انتشار العلم في ذلك الحين قد ساعد على فك الفكر من عقاله فاصبحت المناقشات الفلسفية عامة في كل حاضرة من حواضر العالم الاسلامي ، ولا يفوتنا ان نشير الى ان الذي تزعم تلك الحركة هو حفيد علي بن ابي طالب المسمى جعفر والملقب بالصادق و هو رجل رحب افق التفكير بعيد اغوار العقل ، ملم كل الاسام بعلوم عصره ، ويعتبر في الواقع اول من اسس المدارس الفلسفية المشهورة في الاسلام ، ولم يكن يحضر حلقاته العلمية اولئك الذين اصبحوا مؤسسي المذاهب فحسب ، بل كان يحضرها طلاب الفلسفة من الانحاء القاصية » .

على ان متحدثا قديما اعطانا صورة اخرى عن اثر الصادق : ذلك هو الحسين بن علي الوشاء حين قال :

« ادركت في هذا المسجد - يعني مسجد الكوفة - تسعمائة شيخ ، كل يقول : حدثني جعفر بن محمد » .

وحين يقول هذا القائل انه ادرك تسعمائة شيخ في مسجد الكوفة يلتقون الى طلابهم ما القاد اليهم جعفر الصادق من علم ، فان ذلك يعني ان تسعمائة مدرسة كانت تنعقد حلقاتها في المسجد الجامع مشتملة على طلاب من اقطار شتى ، وافدين الى الجامعة الكبرى للتزود بالعلم الغزير والمعرفة الواسعة . ويوم نعلم ان رجلا هو مصدر التثقيف لتسعمائة مدرسة فاننا ندرك ما كان عليه هذا الرجل من الاحاطة والشمول والحكمة .

على ان جامعة الكوفة كانت في الحقيقة فرعا من الجامعة المركزية

فى المدينة ، تلك الجامعة التى كان يشرف عليها ويديرها جعفر الصادق نفسه . والتى بلغ عدد المنتمين اليها الاربعة الآلاف من جميع الاقطار الاسلامية ، وفيهم من كبار العلماء والفقهاء والمحدثين الذين اصبحوا أئمة و مؤسسين لمذاهب اسلامية ، كما كان فيهم الشعراء والادباء والحكماء .

على ان قيمة ما فعله الصادق هو انه كان الداعية الاول فى الاسلام الى التدوين والتأليف .

فحتى عصر الصادق لم يكن التدوين هو الاصل بل كان نادر الحدوث ، وفى كل العصور التى سبقت الصادق لا نرى من المؤلفات ما يمكن ان يعد تأليفا او اخذا بمبدأ التأليف فجاء الصادق يدعوا الى التدوين والتأليف وكان شعاره الذى يهتف به لتلاميذه هو قوله لهم : اكتبوا فانكم لا تحفظون حتى تكتبوا .

وقال للمفضل بن عمر : اكتب وبث علمك فى اخوانك فان مت فورث كتبك لبنيك .

وكان يقول لاصحابه : احتفظوا بكتبكم فانكم سوف تحتاجون اليها .

هذه الدعوة الصارخة التى كان ينادى بها جعفر الصادق بين اربعة الاف طالب مجد ، اتت ثمارها فاندفع العلماء الى الكتابة والتأليف ، اندفعوا بحماسة المؤمن و عقيدة المجاهد وشجاعة البطل فاذا بنا نرى هذه الدعوة تعم العالم الاسلامى كله ، و اذا بها منفتحة لعهد جديد من

عهود الثقافة الاسلامية لم يكن مألوفاً من قبل .
ومن العجيب ان هذه الحركة لم تقتصر على الفقه والحديث والتفسير
مما يمكن ان يتبادر الى الازهان انها هي وحدها موضوعات مدرسة
الصادق . بل تجاوزت حركة التأليف بين تلاميذ الصادق الى شتى العلوم
النظرية والعلمية . و اذا كان المجال لا يتسع لتعداد جل ما الفوه في تلك
الفترة ، فأننا نكتفى بالقول : ان ما ألفه تلاميذ الصادق بلغ اربعمائة كتاب
في شتى المعارف والفنون . ونكتفى بان نعدد نماذج من تلك المؤلفات :
هي كتاب التوحيد للمفضل بن عمر و كتاب معاني القرآن لابان بن تغلب
و كتاب الكيمياء لجابر بن حيان .

على اننى و انا اذكر جعفر الصادق لا يمكن ان يفوتنى ان اشير الى
المبدأ الانسانى العظيم الذى كان الشعار الاول له ولسنا هج و مخططاته ،
هذا المبدأ الذى لواخذ به المسلمون في عصره و بعد عصره لنجوا من
كثير من الشرور ، والذى لواخذت به الانسانية في كل عصورها لنجت
هي الاخرى من الشرور .

ذلك هو قوله : ليس من العصبية ان تحب اخالك ، ولكن العصبية ان

ترى شرار قومك خيرا من خيار غيرهم .

ولم يكن اولى من الصادق في تطبيق هذا المبدأ على نفسه ، فقد
احب اخوته ، ولكنه ابداه شرار قومهم خيرا من خيار غيرهم . وبهذه
الروح استطاع ان ينفذ الى اعماق المسلمين ، فينجح كل النجاح .
وظل الائمة بعد الصادق يقودون الركب بقدر ما يسمح لهم الظروف ،

وظلت حركة التدريس والتأليف مستمرة حتى بلغ ما ألفه علماء الشيعة في عهد الأئمة ، اى حتى سنة ٢٦٠ هـ ما يزيد على ستة آلاف وستمئة كتاب . وامتاز من بين هذه السنة الآلاف والست المائة الكتاب اربعمئة كتاب عرفت بالاصول الاربعمئة .

١٥- الشيعة فى الحكم

تولى الشيعة الحكم فى فترات معينة ، وقامت لهم دول فى المغرب والمشرق فاذا بدنيا الاسلام تستقبل فى الحكم شيئا جديدا .

فالناس الدين عرفوا الحاكمين طغاة سفاكين سلايين فظلموا فى ثورات متصلة ونقسات متوالية عليهم ، هؤلاء الناس تطلع عليهم فى المغرب فى شمال افريقيا دولة جديدة مستمدة اصولها من جوهر الاسلام و من مثل على ومناهجه فلا يستطيع الناس الا ان يسارعوا اليها طائعين .

فحين نجا ادريس بن عبدالله بن الحسن المثنى بن الحسن بن على بن ابي طالب ، حين نجا من مجزرة فخ و مضى الى المغرب ، كان المغرب لايزال منذ العهد الاموى يعانى شر انواع الحكم فظل فى ثورة دائمة ، وتوقف انتشار الاسلام فيه واضطر من به من المسلمين الى التمدد بمذهب الخوارج غضبا على الحكم .

و يصل ادريس حفيد على المتخلق بخلقه الآخذ بسبيله فينجح فى اقامة حكم يرى فيه الشعب لونا جديدا لم يألوه من قبل فيهرع الناس اليه ويقبلون عليه و تذوب المعارضة الخوارجية .

والبربر الذين رفضوا الاسلام الممثل بالأمويين والعباسيين اقبلوا

على الاسلام ممثلاً بالعلويين وبعد عدائهم الشديد له عادوا على يد
الأدارة حماته وذاته .

وكما يقول الدكتور حسين مؤنس فان الدولة الادريسية العلوية لا
تزال تنتظر من يكتب تاريخها . ويقول: يفوت المؤرخين ان يتبينوا مكانها
كحجر الزاوية في بناء اسلام المغرب وما قامت به من دور عظيم في مد
رقعة الاسلام في شمال المغرب الأقصى وغربي المغرب الأوسط والقضاء على
نزعات الخوارج وما بذله امرؤها من جهد في ارساء أسس الاسلام
الصحيح في بلد اصبح بفضل الأدارة الدرعية الواقى للجناح العربى من
مملكة الاسلام .

ومن نسل هؤلاء الأدارة جاء الشريف الادريسي صاحب (نزهة المشتاق
في اختراق الآفاق) الذى يعد من امتع ما الفه البلدانون المسلمون في علم
الجغرافيا . وله فوق ذلك كتاب علمى في النبات سماه (جامع اشبات
النبات) يورد فيه اسماء النباتات في لغات عدة شرقية وغربية . والكتاب
كما يقول الشيبى : يدل على علم واسع و تحقيق بالغ و منه يستنتج
ان الادريسي حاذق في علم النبات وعلوم الطبيعة والطب اكثر من حذقه في
في ناحية الجغرافيا والبلدانيات . وهو من المخطوطات النادرة .

ومما يلفت النظر في تاريخ الأدارة مارواه المؤرخون من انه حين
انتظم امر ادريس بن ادريس وبنى مدينة فاس ، وقد عليه جماعة من الفرس
فأنزلهم بضيفة هناك كانت على العين المعروفة بعين علوان . كما يقول
صاحب الاستقصاء .

١٦- الشيعة يتولون نشر الإسلام

رأينا ان الأدراسة هم الذين نشروا الاسلام فى شمال افريقيا وأدخلوا فيه القبائل البربرية العظيمة التى قدر لها بعد ذلك أن تكون من أكبر الدعائم الاسلامية .

وكما حال الحكم الغاشم دون انتشار الاسلام فى المغرب فقد حال كذلك دون انتشاره فى المشرق . ففى كل العهود الأموية والعباسية لم يستطع الاسلام أن ينفذ الى قلوب الشعوب .

يقول فاضل الخالدى متحدثا عن الديلم :

« ان الديلم قاوموا الفتح الاسلامى وعلى الرغم من ان قسما من بلادهم قد فتح عنوة من قبل الجيوش الاسلامية الا انهم لم يدخلوا الاسلام ، كما اخفقت كل المحاولات العسكرية الذى بذلها الأمويون والعباسيون لحملهم على اعتناق الاسلام » .

اجل لقد اخفق القواد واخفق الحكام فى ادخال الديلم فى الاسلام ، لان اولئك القواد واولئك الحكام كانوا آخر من يحق له التكلم باسم الاسلام ويدعو اليه .

ثم يفر بعد ذلك الى بلاد الديلم ثائر علوى فيصل اليهم شريدا طريدا خائفا ، ذلك هو يحيى بن عبدالله بن الحسن المثنى بن على بن ابى طالب الذى لاذ بالديلم فرارا من هارون الرشيد . فلم يشغله الذعر والخوف والحرمان عن واجبه ، ولم ينسه ذلك انه سبط محمد وحفيد على ، و ان من كان كذلك مسؤول عن الاسلام مهما كانت الظروف ، فعمل على نشر الاسلام

فى الديلم فبدؤوا يدخلون فيه ثم تتابع لجوء العلويين اليهم و تتابعت دعوتهم لهم الى الاسلام . حتى توج ذلك كله بقدم الحسين بن على الأطروش ، هذا الثائر العلوى الذى دخل بلاد الديلم سنة ٣٠١ هـ و اقام بينهم ثلاث عشرة سنة يدعوهم الى الاسلام حتى لبوا دعوته و اسلموا بمجموعهم .

فى اندونيسيا

واذا كان الشيعة قد حملوا الاسلام الى المغرب الأقصى والأدنى ثم حملوه الى المشرق الأدنى فانهم كذلك حملوه الى المشرق الأقصى، والذين حملوه الى هناك هم هذه السرة فى الكثير منهم من الايرانيين ، فانتشر فى اندونيسيا و عم الأكثرية من سكانها .

يقول العالم الأندونيسى حسين جاجاد نغراث : نعتقد بان الاسلام بصورته التى كان معروفاً بها فى جاوا - جاء عن طريق فارس ، ومن هناك عبر الهند الغربية وسومطرا .

وعلى سبيل المثال - يقول العالم الأندونيسى - نذكر انه فى اليوم العاشر من المحرم - وهو الذى يحتفل فيه الشيعة بذكرى استشهاد الحسين - تقوم عائلات عديدة باعداد طعام خاص يدعونه "ببئرسورا" وهى كلمة مأخوذة من عاشوراء التى تعنى العاشر من المحرم ، وكذلك يدعى شهر المحرم بالجاوية (سورا) ، و نجد ايضا آثار نفوذ الشيعة فى (اتجه) شمالى سومطرا ، اذ يدعى شهر المحرم باسم شهر الحسن والحسين . وفى (مينانج كابو) على الساحل الغربى لسومطرا يدعى شهر المحرم شهر النعش، اشارة

لعادة الشيعة و احتفالها بذكرى وفاة الحسين عند ما يحملون نعشا رمزيا يسرون به في الشوارع ثم يلقونه في نهر اومجرى مائى .

وثمة دليل آخر على ان الاسلام جاء الى اندونيسيا عن طريق فارس، وهو العادة المتبعة في استعمال الاسماء الفارسية لا العربية لتسمية حروف الة في اللغة العربية عند تعلم الطريقة الصحيحة في تلاوة القرآن .

وهناك ادلة اخرى من السهل تمييزها تثبت التأثير الفارسى في لغة الكتابة المستعملة في الدراسات الاسلامية .

ويقول الكانت الاندونيسى محمد اسد شهاب: ان الاضطهاد المتوالى لعلويين حصلهم على الهجرة البعيدة فهاجر احمد بن عيسى بن محمد بن على بن جعفر الصادق الى جنوب الجزيرة العربية عام ٣١٣ واستقر هناك ، ثم واصل ابناؤه و احفاده الهجرة للدعوة الى الاسلام، فكانت الهند اولى وجهاتهم فمنهم من استقر في مدينة ملبار ومنهم من واصل الهجرة الى هذه الجزر المعروفة اليوم باسم مالايا و اندونيسيا والفيليبين و سائر جزر سليمان . ولا تزال سلالاتهم معروفة فيها الى اليوم . ومن احمد هذا تحدر سلطان موزمبيق محمد الذى حاربه البرتغاليون وتغلبوا عليه ، ثم يقول : ان اول الدعاة المسلمين الذين وصلوا لشر الاسلام الى هذه الديار هم من الشيعة و هذا امر معروف مسلم به ، فهذه الآثار من شواهد القبور والكتابات عليها والوثائق تدل دلالة صريحة على ذلك ، كما ان عوائد الشيعة لا تزال معمولاً بها الى اليوم في كثير من البلدان على الرغم مما طرأ على هذه العوائد والطقوس من تغييرات لمرور الزمن وانقطاع

الصلات بين مسلمي هذه الديار والعالم الخارجى عدة قرون لاسيما ايام الاستعمار الهولندى الذى استمر ثلاثة قرون و نصف قرن فى اندونيسيا و حتى اليوم لا يزال شهر المحرم و شهر صفر محترمين عند الكثيرين من الاندونيسيين فلا يقيمون فيهما افراحا ولا يعقدون زواجا ولا يجرون زفافا . و يوجد حتى اليوم مدفع قديم فى مدينة بانتن القديمة بجاوا الغربية مكتوب عليه لا فتى الا على ولا سيف الا ذوالفقار . كما ان كل السيوف القديمة المحفوظة تحمل تلك العبارة ، وعلى كثير من القبور القديمة منقوش كلمات : الله ، محمد ، على . وعلى بعضها : لاله الا الله محمد رسول الله على ولى الله .

ويزيد البجائة الاندونيسى قائلا : وحل الاستعمار الهولندى فاذاق الشيعة انواعا من التعذيب و اهوالا من التنكيل بسبب مقاومتهم لهذا الاستعمار . وبلغ التنكيل اوجه عام ١٦٤٢ ميلادية ، ففى هذا العام شردت هولندا الشيعة تشريدا بعد ان عذبته تعذبا . و اباد الاستعمار الهولندى الكتب والوثائق التاريخية ، بل كل ما له علاقة بالشيعة . وقد امتدت هذه المرحلة ثلاثة قرون ونصف القرن .

ويقول المؤرخ الاندونيسى محمد تميم ابراهيم من محاصرة له : ان اول مملكة اسلامية هنا يرأسها شخص بلقب شيخ كانت بايدى العرب من الهاشميين فهم رؤساء الدين والدنيا .

وعدا هذا فقد ذكر هجران العلويين الى جزر الشرق الاقصى كل من (فن دن بيرخ) الهولندى و (فرين ميس) فى كتاب (سيجاره تانه جاوا) و

(بيخمان) و (نور الدين محمود عوفى) . ويقول فن دن بيرخ فى كتابه (حضر موت والمستوطنات العربية فى الجزائر الهندية) الصادر باللغة الفرنسية : ان نجاح الدعوة الاسلامية فى جاوا كان لان الدعاة من ذرية النبى .

و يقول المؤرخ الهولندى سبات فى كتابه (الاسلام فى الهند الهولندية): ان حملة الاسلام الى هذه البلادهم (الاسرة العلوية) آل علوى .

١٨ - فى الصين وكامبوجا وسيام :

ويقول نور الدين عوفى عن انتشار الاسلام فى الصين : ان الاشراف العلويين هربوا من الامويين الى بلاد الصين و نشروا الاسلام فيها .

ويذكر محمد تميم فى محاضراته ان الاشراف العلويين انتشروا فى كامبوجا والصين و سيام و غيرها، ومن الواصلين الى كامبوجا الحسين الملقب بجمال الدين الاكبر . وكان للحسين هذا ولدان احدهما ابراهيم وتقول الروايات الجاوية ان ابراهيم هذا قد وصل مع ابيه الحسين الى سيام وجاوا و انه تزوج اميرة من جامبا اسمها بالد ، اوولاق فولدت له ابنين عليا و اسحاق كانا من انجح العاملين على نشر الاسلام ، و ان اعظم نجاح لاسحاق كان فى بانويوانغى .

ومما يذكر ان سلالات الدعاة العلويين امتزجوا بالشعب و اندمجوا به و تسموا باسمائه و بقيت منهم بقية محتفظة بانسابها فنرى مثلا اسم كياهى احمد بن كياهى مأس مجيد وهكذا الى ان تنتهى السلسلة الى السيد الشريف على بن السيد الشريف عبدالله ابن السيد الشريف احمد بن عيسى

المهاجر .

١٩- فى الفيليبين :

وقدم العلويون الى الفيليبين التى كانت تعرف باسم (صولو) فاستوطنوا بها و نشرو الاسلام وتناسلوا ، ثم اقاموا بها ملكا . واستمر حكم العلويين حتى سنة ٨٨٥هـ ١٤٦٥م وقيل الى عام ١٥٢١م حين هاجم الاسبان المسلمين وفشل السلطان عبدالقاهر فى صد هجومهم . وفى تاريخ الفيليبين ذكر مجىء الشريف اولياء بسفينة طافت فى تلك الجزر لنشر الاسلام . وجاء فى كتاب (دراسات عن المسلمين المورو و تاريخهم) المطبوع بمانيلا سنة ١٩٠٥ ان مجىء الاسلام الى الفيليبين كان بواسطة شريف اسمه حسن بن على من ذرية احمد بن عيسى المهاجر ، وقد عمل هذا الشريف العلوى على نشر الاسلام اول الامر فى جزائر (بوايان) الفيليبينية فاسلم ملكها على يديه . وانتشر الاسلام فى مينداناو ومافيندانا وسيبو وسولو وكوتابارو و تمبارا وليونغان وباكمبايان . وجاء فى ذلك الكتاب ان هؤلاء الاشراف كانوا اول من علم الالهين الكتابة العربية .

٢٠- فى افريقيا الشرقية

ومن آسيا الى افريقيه مرة ثانية ، فالشيعة هم الذين نشرو الاسلام فى مشرق افريقيا بالذات ويرى السيد سعيد اختر فى بحث له نشر باللغة الانكليزية ان التشيع وصل الى افريقيا الشرقية فى القرن الاول للهجرة حين فشا الظلم وسفك الدماء فى البلاد الاسلامية على يد الحجاج بن يوسف

فاضطر فريق من الشيعة الى الهجرة البعيدة فكان من الاماكن التي وصلوا اليها افريقيا الشرقية . ويذكر ان زعيمين احدهما يسمى سليمان والاخر سعيد كانا هما طلائع هذه الهجرة ، ولكن التفاصيل عنهما وعن رحلتها مجهولة .

ويستند السيد سعيد فيما يستند الى ما جاء في كتاب (المتكلمون بالسواحلية من اهل زنجبار وساحل افريقيا الشرقى) الذى نص على ان هذين الزعيمين جاءا مصحوبين باتباعهما فى السنة السابعة والسبعين من الهجرة ٦٩٥ م .

ويقول المستر پرنس مؤلف الكتاب المذكور : «ومن الممكن ان هجرات مماثلة حدثت ولكننا لم نسمع عنها» .

ويقول ايضا : « . . . وهكذا نجد اعتقادا فى جزيرة كيوايو بان الاسلام دخل الى تلك الديار على يد رجل يسمى حمزة ورجل يسمى جعفر» ثم يقول : انه يظن ان الاول هو ابن عبد الملك بن مروان والثانى اخو عبد الملك ، ولكن المؤلف پرنس يعود فيرد على هذا الظن قائلا : «ولكن ذلك يشير الى تقليد شيعى بقدر ما يوحى هذان الاسمان» .

ويضيف السيد سعيد اختر الى ذلك قائلا : «لم يكن لعبد الملك ابن يسمى حمزة ولا اخ يسمى جعفر ، ويمكن ان يكون صاحبا هذين الاسمين من الشيعة اللاجئين الى تلك البلاد» .

ويتأكد وصول الشيعة الى افريقيا الشرقية فى وقت مبكر و تأثيرهم التأثير العميق فى الحياة الافريقية بما ورد فى الملحمة السواحلية المسماة

«النظم فى احوال سيدنا الحسين بن على» التى نشرها سنة ١٩٦٠ الاديب الافريقى (بورو) مع تعليقات وترجمة «ألن» .

وهذه الملحمة كتبها فى القرن التاسع عشر حمد عبدالله البحرى -ويظهر انها اعادة لكتاب سابق- وتحتوى هذه الملحمة على الف ومائتى بيت و تسع مقطوعات شعرية .

ويشير بعد ذلك برنس الى تأثير وصول الشيرازيين الاقدمين الى السواحل الافريقية الشرقية وكيف انطبع الشعب بالطابع الشيعى حتى الان فهو يقول : «اثر هؤلاء لايزال ظاهرا فى قالب من المودة العميقة لاهل البيت التى تعد من مميزات المسلمين الافريقيين» .

ويضيف الى ذلك : «ان هؤلاء الافريقيين يضيفون الى اسماء سالات الرسول كلمة شريف التى انقلبت فى اللغة السواحلية الى كلمة (شريفو) كما انهم يكرمون الصالحين من اموات هؤلاء الاشراف .

ويقول : «على طول هذه الشواطىء تقوم مزارات هؤلاء الاشراف الصالحين . وفى لامو أهم مركز للزيارة حيث يؤمها فى اسبوع الزيارة عشرات الالوف كل عام. وتعتبر زيارة الشريف صالح بن عبدالله العيدروس فى لامو افخم الزيارات واهمها» .

ويقول السيد سعيد الاختر : «وهذه الدرجة من الاحرام لاهل بيت الرسول لا يوجد لها مثيل فى بلد من البلاد الاخرى .

الى ان يقول : «و انتى اعرف كثيرا من الشيوخ فى لامو وزنجبار ممن يصرحون باعتقادات تعتبر فى البلاد الاخرى من اعتقادات الشيعة» .

٢١- الشيعة في الحكم

التجربة الاولى للحكم الشيعي تجربة الادارسة دلت على مايمكن ان يعطيه هذاالحكم ، فقد كان عهدالادارسة عهد نشرالاسلام و اقامة العمران وبث العلم والايمان، كما كان كذلك عهد العلويين في بلادالديلم. ولم يأت القرن الرابع الهجري حتى كان جل العالم الاسلامي محكوما من الشيعة . فالفاطيون والبويهيون والحمدانيون كانوا هم سادة معظم الاقطارالاسلامية . فماذا حدث خلال هذاالحكم الشيعي العريض ؟ حدث ان القرن الرابع الهجري اعتبر عصر النهضة الفكرية الاسلامية و اعتبرت حضارته الحضارة الاسلامية الجديرة بالناية والدرس. ولم يكن ذلك الا لان الحكم الشيعي كان يتميز بظاهرتين فذتين ، هما اطلاق الحريات العامة للمواطنين ثم تبني الدولة للحركات العلمية والفكرية والفنية والادبية .

ففي ظلال الحكم الشيعي عرفت الشعوب حرية العقيدة وحرية الاعراب عن هذه العقيدة . و عند ما نزل ابو عبدالله الشيعي ارض المغرب و سيطر عليها باسم الفاطميين اراده اخوه ابو العباس ان ينفي عن القيروان من يخالف مذهبه ، فقال له اخوه ابو عبدالله : ان دولتنا دولة حجة وبيان وليست دولة قهر و استطالة فاترك الناس على مذاهبهم .

ولما امتدت هذه الدولة واصلت الى مصر وانشأت الجامع الازهر مقرا لدعوتها دعت المذاهب الاسلامية كلها الى ان تتولى تدريس مبادئها في الجامع الازهر . فكان للمالكية خمس عشرة حلقة وللشافعية مثلها

ولاصحاب ابي حنيفة ثلاث حلقات .

ثم اصبحت القاهرة ملجأ للعلماء والمفكرين يفرون اليها من الاضطهاد والفقر . هذا القاضي ابو الفضل محمد بن احمد بن عيسى البغدادى امام الشافعية يفتد الى مصر الفاطمية فيملئ مذهبه فيها ماشاء ان يملئ و يظل كذلك حتى يموت سنة ٤٤١ و ابو الفتح سلطان بن ابراهيم الفلسطينى (٥١٨) يفتد كذلك بين العلماء الوافدين و ابو الحجاج يوسف السيورقى (٥٢٣) و مجلى بن جيع المخزومى (٥٥٠) والقاضى ابو الحسن الموصلى الخلعى (٤٤٨) و عبدالله بن رفاعة السعدى (٥٦١) والقاضى القضاعى . هؤلاء الخمسة ممن وفد الى مصر و ولى القضاء للفاطميين بالرغم من انهم كانوا شافعى المذهب .

ولقد حرصنا على ان نختار واحدا من كل فترة لبنين ان الامر قد استمر ولم ينقطع ولو اردنا ان ندلى بعشرات الشواهد لكانت الاسماء تحت ايدينا .

وعدا عن هؤلاء الشوافع ، فمن فقهاء المالكية لجأ الى مصر الفاطمية امثال محمد بن سليمان المعروف بابى بكر النعال الذى كانت اليه امامة المالكية واليه كانت الرحلة بمصر ، وكانت حلقاته فى الازهر الفاطمى تدور على سبعة عشر عمود الكثرة الطلاب الذين كانوا يقصدونه (٣٨٠) .

وهناك قصة الفقيه المالكى عبد الوهاب بن على ، الذى وصفه الخطيب فى تاريخ بغداد بانه لم ير فى المالكية افقه منه . هذا العالم تضيق به دنيا الاسلام فيكاد يموت من الجوع فى بغداد و ينتطلع الى البلد الذى يحفظ

عليه رmqه ويقيه بؤس العيش فلا يجد الاّ مصر الفاطمية ، فما ان يصل الى مصر حتى تتلقاه الدولة بالترحاب و تغدق عليه المال وتأمّره بالانصراف الى علمه . ولكن الامر لا يطول به فيمرض بالفالج فيقول : لا اله الا الله عند ما عشنا متنا (٤٢٢) و عبد الجليل مخلوف الصقلّى (٤٩٩) و ابو بكر الطرطوشى محمد بن الوليد الاندلسى نزىل الاسكندرية (٥٢٥) وغيرهم . ويقول ابن ابى اصبيعة انه لما وصل المهذب بن النقاش - وكان فاضلا فى صناعة الطب - الى الشام من بغداد اقام بدمشق مدة ولم يحصل له بها ما يقوم بكفايته ، وسمع بالديار المصرية لانعام الخلفاء فيها وكرمهم واحسانهم الى من يقصدهم ولا سيما ارباب العلم والفضل فتوجه الى مصر ، فوهبت له الاموال و اقام فيها مكرما .

وبلغ الامر الى ان الغزالى الذى هاجم الشيعة بعامّة والفاطميّين بخاصة والذى شحن كتبه بالتحامل عليهم والطعن فيهم لم يجد آخر الامر الاّ مصر الفاطمية بلدا يأويه ويشجعه على مواصلة البحث والدرس . وتناسى الفاطميون تعصب الغزالى و اعتداه عليهم ولم يذكروا الاّ انه عالم ، وحق العالم عليهم حق كبير وتجاهلو ما نالهم منه فى كتبه القسطاس والمنقذ من الضلال والمستظهرى وغيرها فاحلوه فى دولتهم على الرحب والسعة والف بعض كتبه ككتاب مشكاة الانوار فى رعايتهم وبين ظهرانيهم .

٢٢- الشيعة هم هم على اختلاف آرائهم

و اننا ونحن نتحدث عن حرية الفكر والقول التى اباحها الفاطميون لكل المواطنين ، لا يفوتنا ان نشير الى ان التشيع ايا كانت آراؤه قد اتخذ

من الحرية والتحرير و تشجيع العلم و احترامه طريقا لم يحد عنها ابدا ،
فهؤلاء الائمة الزيود وقد استقوا من المنايع الشيعية الاولى لم يخرجوا
عن هذا الطريق حين كانت لهم السلطة المطلقة على اليمن . لقد حدث ان
آل يعفر سجنوا الحسن بن احمد الهمداني الشهير صاحب كتاب الاكليل،
فتوهم الهمداني ان ذلك كان برأى الامام الناصر احمد بن الامام يحيى
الهادي .

فاتتقم الهمداني لهذا السجن بان ملاء كتبه بالهجوم لاعلى من يتهمه
بسجنه وحده بل على الائمة الزيود كلهم و على قومهم . ومع ذلك فان
هؤلاء الائمة احترموا هذه الكتب وما فيها من علم متغاضين عن نزوات
الهمداني متجاهلين انفسهم وقومهم . فحفظوا تلك الكتب ولم يمدوا اليها
بدا بسوء فلم توجد الا في خزائنهم - وكان بعضها مستنسخا بخط الائمة
انفسهم ومحفوظا في مكاتبهم الخاصة، على حين كانوا مستطيعين احراقها
وحسبنا من ذلك كتاب (الدامغة) و شرحها الذي الف للطعن بهم والانتقام
منهم ، ومع ذلك صانوه حتى وصل اليها من مكنتاتهم وحدها .

٢٣- الحمدانيون

وفي بلاد الشام حكم الحمدانيون وتتلأأ بظلمهم سيف الدولة على
بن حمدان المتوفى سنة ٣٥٦ ، فاذا بحلب عاصمتهم تصبح قطب النهضة
العلمية الفلسفية الشعرية الادبية ، و اذا بالعلماء والشعراء والمؤلفين
يفدون الى حلب منتجين سيف الدولة فيجدون في ظله الحماية والرعاية
والتشجيع ، فيلتقي في بلاطه امثال الفارابي و ابي الفرج والمتنبى و ابن

خالويه ، وكل من حمل قلما واذكى فكرا ودعا الى معرفة .

يقول (شلمبوكر) فى كتابه عن القائد البيزنطى (نيكفورفوكاس) متحدثا عن سيف الدولة : «هذا القائد المجاهد - سيف الدولة - لم تعرفه السعارك عن ان يجعل من حلب بيئة خصبة للاداب والفنون والعلوم ، فقد فتح قصره لكل فنان موهوب واديب فذ فتوافدوا عليه من جميع الاطراف : من العراق و ايران والشام وبيزنطية وفينيسيا وجنوى . وكان يستمع الى الشعراء ويتجنب الى الكتاب والمصورين ويمنع المؤرخين الشئ الكثير من عطاياه فيعود هؤلاء الى بلادهم حاملين الى شعوبهم صورة رائعة من خلق الرجل العالمى و شخصيته العجيبة» .

وفى الواقع فان كل شئ كان يصرف سيف الدولة الحمدانى عن التفكير بالعلم والفكر والادب فان الخطر البيزنطى كان خطرا مرعبا يهدد الديار الاسلامية بالاكتماس فتصدى له سيف الدولة وحده بدولته الناشئة وجيشه الصغير وقوته القليلة لقد كان سيف الدولة يحكم رقعة ضيقة الحدود منكشاة الاطراف هى جزء من شمال سوريا ولكنه بوطنيته الشماء استطاع ان يؤلف من هذا النطاق المحدود جيشا شجاعا صمد للسيول البيزنطية المتحدرة صمود الابطال ، فخاض به سيف الدولة اكثر من اربعين معركة واستطاع ان ينقل الحرب الى الارض البيزنطية نفسها فحمى بذلك العالم الاسلامى الذى كان يحلم البيزنطيون باستعادة سيطرتهم على الارض التى اخرجهم منها .

كان لسيف الدولة شاغل بهومومه الحرية و متاعبه العسكرية عن

التفكير بالعلم والشعر والفلسفة والادب . ولكن لم يشغله عن ذلك شيء فشهدت البلاد ازهى نهضة عرفت في تاريخها ، وجمعت مجد القلم الى مجد السيف .

٢٤- بنوعمار

وحكم بنوعمار دولة على الساحل السوري اللبناني عاصمتها مدينة طرابلس ، وقد قالت عنها دائرة المعارف الاسلامية : كما كانت حلب في عهد سيف الدولة مركزا للشعر كذلك كانت طرابلس في عهد الحسن بن عمار و قد ازدهرت المدينة في عهده واصبحت مركزا للحياة الفكرية في بلاد الشام وانشأ مدرسة كبيرة و مكتبة .

وقالت مجلة الثقافة: ومن هذه المكتبة انتشر العلم في انحاء المدينة حتى قال المؤرخون ان طرابلس صارت جسيعها دار علم . وكان في هذه المكتبة مائة وثمانون رجلا لاعمل لهم الا نسخ الكتب و شراؤها لجمعها في هذه المكتبة والفضل الاعظم في هذا لابي طالب الحسن بن عمار .

٢٥- البويهيون

وفي البويهيين يقول الغناوى : امتاز عهد آل بويه بالخصب العلمى بتأثيرهم الخاص و تأثير وزراءهم ذلك انهم استوزروا ابرع الكتاب واعتمدوا عليهم في تدبير شؤون الحرب و امور السياسة و الادارة والمال جميعا فلمعت اسماءهم و عظمت هيبتهم و طارصيتهم في الآفاق فقصدتهم اهل العلم والادب فافادوا منهم كثيرا وانتجوا كثيرا في ميدان الادب والفلسفة والعلم ، فكان اثرهم في الحياة الفكرية قويا جدا .

وقال المؤرخ الهندي السيد اميرعلى : لقد شجع البويهيون الروح الادبية وعضدوا مدرسة بغداد التي كان قد اضمحل شأنها في اثناء تدهور الخلافة .

ويقول آدم متز في كتاب (الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري) عن عضدالدولة : كان يحب العلم والعلماء ويجري الارزاق على الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين والنحاة والشعراء والنسايين والاطباء والحساب والهندسين وافرد لاهل الاختصاص من العلماء والحكماء موضعا يقرب من مجلسه وانشأ مكتبة تحتوى على كل كتاب صنف الى وقته من جميع انواع العلوم . وقال عنه في كتاب الكنى والالقب : كان عضدالدولة يعظم الشيخ المفيد وقد الف له العلماء العديد من الكتب وقصده فحول الشعراء ومدحوه باحسن المدائح ومنهم شاعر العرب الاكبر ابو الطيب المتنبى الذي قال فيه :

وقدرأيت ملوك الارض قاطبة وسرت حتى رأيت مولاها

ويقول طه الراوى في رسالته عن بغداد : في عهد بنى بويه وصل العلم والادب في بغداد الى القمة العليا فنشأ اكابر المفسرين والمحدثين والفقهاء والمتكلمين والمؤرخين والكتاب والشعراء واساطين العلوم العربية والحدائق في المعارف الكونية .

٢٦- دول اخرى

وقامت دول شيعية اخرى لم تبلغ في اتساع الرقعة وقوة السلطان ما بلغت هذه الدول ولكن كان شأنها في نشر العلم والادب وتشجيع العلماء

والادباء والمفكرين نفس الشأن . كالدولة المزيديّة في العراق ، والدولة المرداسية في سورية .

٢٧- نصير الدين الطوسي

وجاء وقت عاد فيه العالم الاسلامي شلوا ممزقا ، وبدا للناس ان الجذوة الاسلاميّة قد انطفأت وذلك حين تدفقت جحافل المغول بقيادة هولاكو حاملة الدمار والفساء ، ومضت متجاوزة من قطر الى قطر ، تستهدف اول ماتستهدف قتل العلماء وحرقت الكتب وهدمت المدارس حتى خيل للناس ان الوثنية قد طغت والشرك قد تركز والجهل قد عم .
ومن بين هذا الهلع المريع واليأس القاتل والخيبة الشاملة والاستسلام الكامل .

من بين كل ذلك يبرز نصير الدين الطوسي فيكون بطل الاسلام في عصره ، البطل الذي يقاتل بالعقل والعلم حين يعز عليه ان يقاتل بغيرهما .
يبرز نصير الدين فيدرك ان النصر العسكري على المغول امل لا يتحقق ويعلم انه اذا كتبت على الاسلام الهزيمة الفكرية بعد الهزيمة الحربية كان في ذلك القضاء المبرم على الاسلام .

فيتجرد للمعركة الحاسمة بكل ما اوتي من ايمان واخلاص وتضحية و بكل ماتفرد به من ذكاء و مرونة و معرفة ، فيخطط وينظم ، فيكون اول مايفعل ان يحفظ الكتب ويحفظ العلماء ، ثم يستولى على عقل الطاغية ويروض شارب الدماء ، ويسوقه دون ان يدرك الى تحقيق اهدافه فيقيم في مراغه اعظم جامعة علمية عرفها العالم الاسلامي ، وينشئ فيها اكبر

مكتبة ويحشد لها العلماء والمفكرين والحكماء من كل مكان ويستحضرهم من الشرق الاسلامي و من الغرب الاسلامي ، فيلتقي في مراغة ابن الشام مؤيد الدين العرضي ، مع ابن افريقيا يحيى بن محمد بن ابي الشكر المغربي مع ابناء الموصل وبغداد والجزيرة وقزوين وتفليس وكل بلد اسلامي .

يلتقون بدعوة من نصير الدين الطوسي ويجمعون برعايته فيخطط لهم للمعركة الكبرى معركة حماية الاسلام ، المعركة التي لاسلاح فيها الا القلم والفكر والكتاب، ولا ميدان لها الا المدرسة والمسجد والبيت . فيمضون بقيادته الحكيمة الباسلة ويشون من نصر الى نصر حتى تكون قمة النصر اسلام الدولة المغولية التي جاءت لهدم الاسلام .

كانت مخططات نصير الدين فريدة في التاريخ ، وكان نصير الدين واحدا من عمالقة الكون فكرا وعلماء واخلاصا . والامم في محنها الطاغية اذا لم يقبض الله لها رجلا مثل نصير الدين فانها هالكة في الهالكين .

تطلع الطوسي فاذا المسلمون قد مزقتهم العصبية الحمية وخردهم الجهل، ولم يبق في ايديهم من العلم الا قشور لالباب فيها . كانوا والمغول على ابوابهم يسفكون دماءهم بايديهم فيهاجم ابن الخليفة المستعصم بجنوده محلة الكرخ البغدادية فيذبح فيها رجال الشيعة ويسبي نساءهم ويعتبر ان ذلك هو النصر الاكبر . والشوافع والاحناف يتذابحون في اصفهان والمغول يحاصرونها ويستنصر الشوافع بالمغول ويفتحون لهم ابواب المدينة فيقضي المغول على الفريقين .

والقاضي شمس الدين القزويني لم يرعه ان المغول بقيادة جنكيز قد

اجتاحوا بلاد المسلمين حرقا وقتلا ونهبا، ولم يسره ان قلاع الاسماعيليين في الموت وغيرها قد صددت لجنكيز فلم يقو على اجتياحها . بل كان كل هم هذا القاضي، الاسف على ان سلمت تلك القلاع ومن فيها فراح يحرص حفيد جنكيز على تحطيمها وقتل الاسماعيليين لانهم يخالفونه في المذهب. ومضى يشجعه حتى مشى هو لاكو و شعار حملته محو الاسماعيليين وقلاعهم فكان منه الذي كان ولم يقض على الاسماعيليين وحدهم بل قضى معهم على الخلافة القائمة .

تطلع الطوسي الى هذا الماضي المثقل بالرزايا والحاضر المشلول بالنكبات ، فاذا بالطوسي اكبر من عصره و اكبر من الرزايا والنكبات ، اذا به يرتفع الى القمة التي تليق برجل الساعة فما زال حتى استخلص اوقاف المسلمين من ايدي الباغى العاتى وتفرد بادارتها . فاجتمع له المال الوفير الى العقل الكبير والاخلاص الغزير فاستنقذ الكتب و فتح معاهد العلم و بذل المال للطلاب وحمى العلماء من القتل باساليب غاية في البراعة و حسن التدبير . و ارسل تلميذه فخر الدين المراغى الى اقصى البلاد يؤمن السروع الشارد من العلماء ليعود الى بلاده ويغري علماء البلاد الاخرى بالقدوم اليه غير ناظر الى مذهب او مشرب او نحلة مترفعا عما كان قد اجتاح اهل عصره من ادواء مذهبية وغلل طائفية واضعا نصب عينيه الاسلام ونجاة هذا الاسلام وفاز بما اراد .

ان نصير الدين الطوسي واحد من انضر وجوه التشيع في التاريخ ومثل على ما كانت عليه تلك الوجوه من تناسى الاحقاد والصفح عن الجرائر

حين تدلهم الخطوب و ينزل البلاء .

ويقظة العالم الاسلامى فى هذه العصور الاخيرة مدينة الى شيعى من هذه البلاد هو جمال الدين الحسينى الذى اشتهر بالافغانى . هذا الرجل الذى خرج من بلدته اسدآباد فطوف فى البلاد و استقر حينا فى مصر داعيا الى الاصلاح والنّهوض فكانت دعوته النداء الاول الذى استفاق اليه المسلمون بعامّة والعرب منهم بخاصة بعد طول رقاد .

٢٨- التشيع واللفات الإسلامية

اغنى التشيع اللغة العربية بالشعر والنثر وحمى ملوكه آدابها وعلماءها وشعراءها ونهضوا بهم الى حيث ينبغى لهم ان ينهضوا . وكان فحول شعراء اللغة العربية من الشيعة منذ الفرزدق الى ابى تمام والبحترى والمتنبى و ابى فراس والرضى و ابن هانئ الاندلسى ولايشذ عن ذلك السعرى القائل :

اليس قريشكم قتلت حسيناً وكان على خلافتكم يزيد
والقائل :

وعلى الدهر من دماء الشهداء على ونجله شاهدان .
ثم ان الشعراء الشيعة اوجدوا الشعر الملحمى والشعر القصصى فى الادب العربى ولايزال مؤرخو هذا الادب و مدرسوه يتجاهلون ذلك ويأسفون ان لا ملاحم فى الشعر العربى ولا قصص ، فى حين انهم لورجعوا الى الشعر الشيعى لوجدوا فيه القصة والملحمة . ف شعر السيد الحميرى هو الشعر القصصى العربى وقصيدته البائية هى القصة بعينها .

و شعر كاظم الازرى هو الشعر الملحى العربى وقصيدته الهائية المعروفة بالازرية هى كذلك الملحمة بعينها .

وهنا فى ايران نفسها نشأ فى اصفهان شاعر باللغة العربية هو احمد علوية الاصفهاني المتوفى سنة ٣٢٠ و نظم باللغة العربية فى سيرة امير المؤمنين ملحمة شعرية فى الف بيت .

و اذا كنا نحتاج لدراسة هذا الموضوع الى الكثير من البحث والكثير من الوقت فأننا نجتزئ ذلك الى ظاهرة اخرى فى تاريخ التشيع هى تأثيره فى آداب الامم الاسلامية غير العربية وماخلقه فيها من تيارات لم تكن لتعرفها لولا التشيع . وقد كان من اثر ذلك ان نهض بتلك اللغات و مشى بها فى اساليب وفنون رفيعة ، بل لقد كان التشيع سببا فى تدوين لغات ما كانت لتدون لولا التشيع وكان مقدورا لها ان تظل لغة تخاطب فقط .

ومن ذلك اللغة الاردية لغة الباكستان الرسمية واللغة التى تتكلمها مئات الملايين فى غير الباكستان . فقد تجمعت هذه اللغة من لغات المعسكر (اوردى) الذى اقامه الامبراطور محمداكبر لحيوشه المؤلفة من الترك والفرس والهنود مضافا الى لغة الدين العربية . اذ كان من اختلاط تلك العناصر ان تكلست لغة كانت مزيجا من مجموع لغاتها . وظلت هذه اللغة لغة تخاطب لالغة تدوين شأنها فى ذلك شأن الكثير من اللغات الافريقية . ولكن لطول العهد اخذ الموهوبون من الشيعة ينظمون الشعر بتلك اللغة فتداوله الاسماع دون تدوين وماكان ذلك ليستمط طويلا اذ كان لابد من بروز من يفكر بتدوين هذا الشعر الذى صار مدار اعجاب

الناس وزينة محافلهم . وهكذا دون اول كتاب فى اللغة الاردية و كان هذا الكتاب كتاب (ده مجلس) فى مدح امير المؤمنين على ثم تتابع التدوين و مشى من جيل الى جيل فاذا باللغة الاردية تصبح لغة ادب حى و شعر خالد . و اذا بها تطلع من الشعراء امثال غالب و انيس و ديبير ممن سموا بها الى اعلى منزلة بمنظوماتهم الحسينية والعلوية .

وما يقال فى اللغة الأردنية يقال مثله فى غيرها من اللغات الباكستانية التى تزيد على عشر لغات كاللغة المولتانية مثلا التى يتكلم بها الملايين و التى كان اول مادون فيها مدائح على و مراثى الحسين و من اعلام شعرائها غلام حيدر فدا صاحب ملحمة ذوالفقار المؤلف من خمسمائة و خمسين بيتا و الشاعران الاخوان فداء حسين جهنديرو و ندر حسين جهنديرو، و الثانى منهما نظم باللغة الملتانية خطبة زينب بدمشق فى مائة و عشرين بيتا . و يعتبر الشاعر سيد على شاه مجددا للشعر الحسينى فى هذه اللغة و من اشهر شعرائها .

و من مدينة سر كودها الى ديره اسماعيل خان الى ما قبل مدينة مولتان بعشرين ميلا على ضفة نهر السند تسكن جموع من المتكلمين باللغة المولتانية و منهم خرج كبار شعراء المراثى الحسينية و المدائح العلوية الذين يبلغ شعرهم المدون ما يقرب من ثلثى شعر اللغة المولتانية عدا عن الشعر غير المدون . و قد كان هؤلاء الشعراء السبب فى تدوين هذه اللغة و جعلها لغة ادب حى . و شعرهم فى على و الحسين و آل البيت عامة يجعل الادب المولتانى فى مصاف الآداب العالمية بما فيه من روعة التعبير و عمق

المعنى و تدفق العاطفة و سرد القصص .

وكذلك القول عن بقية اللغات الباكستانية كاللغة السندية وغيرها .

الخاتمة

ولعل خير ما يختتم به حديثنا هذا هو السؤال التالى :

اذا كانت هذه حقيقة التاريخ الاسلامى و تاريخ التشيع فهل هى كذلك فى اذهان الناس العامة منهم والخاصة ؟ وهل دوت و اوضح واقعا فى سجلات الحضارة كما هى فعلا ؟ وهل تقيّم حركة و اشخاصا على اسس صحيحة مستمدة من الحقيقة بالذات ؟

ولا يحتاج المرء الى كبير جهد وعظيم معرفة للتأكيد بان ما كتب ويكتب عن الشيعة باقلام غير شيعية وحتى فى بعض الاحيان ببعض اقلامها ، وما يزعم انه تاريخهم و انه عقيدتهم و انه سير رجالاتهم و اعلامهم ، ان كل ذلك لا يعدو كونه باسط التعابير تشويها و طمسا للحقيقية وصرفا للاذهان والفكر عنها الى ما لا يمت بصلة اليها . ونحن نجزم ان التصميم القديم الذى اعتمدته الذين انحرفوا عن الاسلام فى مطلع الاسلام للنيل من التشيع و تشويهه لما يزل هو هو وتكاد اكاذيبه تصبح من المسلمات .

ذكرت الأنسكلوبيديا الأميركيّة فى طبعتها الاخيرة تحت عنوان شيعة ماتلى ترجمته حرفيا : « انقسم المسلمون بعد موت محمد الى فرقتين الاولى و هى المسماة الشيعة تضع عليا على مستوى واحد مع محمد... » . هذا نموذج مما يكتب عن الشيعة ولست اغالى مطلقا اذا قلت ان الغالبية الساحقة لما يكتب عن المسلمين والاسلام وفيما يتعلق منهم بشكل

خاص بالشيعه انما هو مجرد تحريف وتشويه و طمس للحقائق . وامام هذا الواقع لابد من اعاده كتابة التاريخ الاسلامى بشكل عام والتاريخ الشيعى بشكل خاص لكى يستطاع جلو الصدا المتراكم الذى تأكل الحقائق حتى كاد يقضى عليها .

لقد آن الأوان لكى تقال الحقائق و تعرف على مستوى عالمى وانسانى ولا بد من عمل طويل وشاق بالساليب جديده و حديثه بايد امينه و ضليعه للكشف عن وجه الحقيقه و اظهارها للعالم لكى تقيّم على اساسه ولايسوغ فى اى حال من الاحوال ان يترك الظلام يسطو على الحقيقه من وضح النهار . . .